# جمالية القصة القرآنية – قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام إنموذجا

**د. بان حميد فرحان**

جامعة بغداد ــ كلية التربية للبنات

عندما خلق الله تعالى الخلق لم يتركهم يتخبطون في ظلمات الجهل ومتاهات الضلال ، بل أرسل اليهم رسلا يهدونهم الى الحق ويحذرون من مهاوي الردى ،وأختص منهم أولي العزم وفضلهم على غيرهم و منهم خليل الرحمن ، أبو الانبياءإبراهيم (عليه السلام) ، الذي أثنى عليه ربه وأمر نبينا بإتباعه إذ قال : (( إن إبراهيم كان امة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ، شاكرا لانعمه إجتباه وهداه الى صراط مستقيم ، واتيناه في الدنيا حسنة وانه في الاخرة من الصالحين . ثم أوحينا إليك أن إتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ))(1) ، ولقد ذكر إبراهيم (عليه السلام) تسعا وتسعين مرة في القرآن الكريم موزعة على خمسة وعشرين سورة (2) .وهنا سأعرض لجماليات قصة سيدنا إبراهيم(عليه السلام )التي تظهر في سيرته على وفق ماورد في القرآن الكريم .

والقرآن المصدر الأساسي للتشريع ، وقد أتى بالقصة ومشاهد الدنيا والاخرة باسلوب معجز وصور جمالية ذات تصوير أدبي دقيق، ولعل الجاحظ (ت255هــ) أول من وضح الجمالية القرآنية في نسقه البعيد ونظمه الجميل(3)، وتابعه في ذلك الخطابي (ت388هــ) ولكن عبرجمالية الالفاظ وإن لم يهمل دور المعاني في تاثيرها في المتلقي(4). أما الباقلاني (403هــ) فينوه بخاصية الجمالية في أنماط القرآن جميعها من غير تفاوت ولاتباين وهي جمالية النظم العجيبة التي يعجز عن أمثالها أرباب الفصاحة والأدب(5) . وقد نبه الجرجاني (ت 482هــ) فيما بعد الى إنبهار العرب بجمال منفرد للقرآن الذي يسري في الفاظه وآيه وسوره ومقاطعه(6)؛ عليه فالجمالية القرآنية هي علم الجمال القرآني وفنيته التي تعنى بالكشف عن ألوانه وأسراره وأساليبه عبر الموضوعات القرآنية المتعددة، وبتعبير أدق؛ فإن الجمالية أبرز الظواهر القرآنية بسبب ما استعملته من المواد العربية الاولى نحو: المفردة ، والتركيب ، والصورة الأدبية ولكن في آفاق من الإعجاز الإلهي الدائم(7) . و سيرة أبي الانبياء ( عليه السلام ) تزخر بالجمالية ذات الأساليب المتنوعة والمتمثلة في دعوة الناس وارشادهم الى طريق الخير والصلاح ، وإقناعهم بالحجج العلمية القوية التي بينها القرآن الكريم ، وكل ذلك قائم على جمال اللفظ والمعنى ، وحسن تركيبهما في أحسن صورة من صور الابداع الأدبي الفني (8).

والقصة من أحب الفنون الى الإنسان ؛ ولم يقف النقاد المحدثون عند عدها لونا من الوان الفن وضربا من ضروب البيان والأدب وإنما يذهبون الى أنها كاللغة توجد في كل الازمنة والامكنة والمجتمعات ومن ثم فهي أسبق من الفنون الاخرى (9).وإذا كانت القصة عرض لفكرة مرت بخاطر الكاتب أو تسجيل لصورة تأثرت بها مخيلته أو بسط لعاطفة اختلجت في صدره ، فأراد أن يعبر عنها بالكلام ليصل بها الى أذهان القراء محاولا أن يكون أثرها في نفوسهم مثل أثرها في نفسه(10)، فإن القصة الفنية ، في المناهج الحديثة لاتقتصر على ما كان حقيقيا وواقعا من الأحداث ، بل تمتد فتنطلق كذلك على ما كان متخيلا ومبنيا على خيال القاص وما يمنحه الأدباء لانفسهم حين يكتبون ، وهنا يواجهنا أكثر من سؤال ولعل أهمها : ما مفهوم القصة في القرآن الكريم وما مفهومه في النقد الأدبي الحديث؟؟

الإجابة على هذه الأسئلة نجدها قد جاءت على لسان ابن منظور في حديثه عن مادة (قصص) حيث يقول : القص : فعل القاص إذا قص القصص ويقال قصص الشيء :إذا تتبعت أثره تراه شيئا بعد شيء؛ ومنه قوله تعالى:( وقالت لاخته قصيه) (11) أي اتبعي أثره ، والقصة : الخبر(12).

تقوم القصة على عناصر أو أركان عدة وسنعرض هنا لجماليات كل عنصر فيها من خلال الحديث عن قصة سيدنا إبراهيم (عليه السلام) ، وعلى النحو الاتي:

## أولا: عنصر الأحداث

يعد هذا العنصرمن أهم العناصر في القصص القرآني كله ، فهو موجود في كل قصة سواء أكانت طويلة أم قصيرة أم بين بين ، وسواء أكانت من قصص الانبياء أم غيرهم ، وسواء أكانت موزعة الحلقات أم معروضة في معرض واحد ، وسواء إعتمدت على طريقة السرد فحسب أم على طريقة السرد والحوار معا؛ فهو عنصر ضروري لاتقوم القصة إلا به ولاتتكون إلا على وجوده(13).

وإذا كنا نرى القصة الفنية تتكون من مجموعة من الاحداث والوقائع يؤلف بينها الأديب القاص على نحو بعينه، فإن القرآن الكريم قد سبق الى ذلك حين أورد كل قصة بطريقة منطقية معجزة تتدرج وتتسلسل الى أن تنتهي الى النتائج والأغراض المقصودة، والقصص القرآني لايعرض من الأحداث إلا ما كان متصلا بالماضي وآثار السابقين لان تتبع الأحداث الماضية ، وعرض أنباء الأولين هو الذي يحقق المقصود والأسى من هذه القصص(14).

وإذ يشتمل عنصرالحدث على صور عديدة من الحوار والجدل الذي تنشأ عنه أزمة الحدث أو عقدته؛ فإن القصص القرآني لم يعمد في عرض هذه الأحداث على عنصرالخيال الذي من شأنه أن يلون الأحداث بغيرألوانها أو أن يبدل ويغير من صورها واشكالها(15)،

وإذ نتأمل الأحداث الواردة في قصة أبي الأنبياء نجد أول مشهد للقصة تصويره وهو صبي يقلِّب طرْفَه في ملكوت السموات والأرض، ويسبق الحديثَ عن هذا المشهد قولُه: ( وهو الذي خلق السموات والارض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير)(16).وهي آية تُعَدُّ تمهيدًا لما سيحدث من إبراهيم ( عليه السلام ) من تأمُّل السموات والأرض، وإعجابه بكوكبها وقمرها وشمسها، وأنها أعظم من أصنام أبيه وقومه، فهي بشهادتهم أَوْلَى بالعبادة من تلك الأصنام، فلعل تلك الرؤوس تترفَّع عن حمأة الطين، لتنظر إلى أعلى وتتدبَّر خلق السموات والأرض، وتتحرَّر من تلك النظرة الضيِّقة المَقيتة، ولعلهم يخطون خطوات متدرِّجة للوصول بهم إلى الإيمان بالله – عزَّ وجلَّ.

ولقد كانت بداية قصة إبراهيم( عليه السلام )إسقاط الأوثان، بتحطيمها في النفوس، ودحض مزاعم الكفار وشبهاتهم فيها،قال تعالى : ( واتل عليهم نبأ إبراهيم ،إذ قال لابيه وقومه ما تعبدون ، قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين ، قال هل يسمعونكم إذ تدعون ، أو ينفعونكم أو يضرون )(17) ،ثم لنراه بعد ذاك يعمد لإسقاطها على أرض الواقع بتكسيرها، وفي ذلك يقول: (تالله لاكيدن اصنامكم بعد أن تولوا مدبرين فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون)(18)؛ حتى لنرى القوم يجمعون على تحريقه لينصروا ألهتهم التي كسرها ، وهنا يظهر عنصر المباغته إذ مهّدت هذه القصة أذهاننا إلى ان الطغاة سوف يلحقون الأذى بإبراهيم( عليه السلام ) نتيجة تهشيمه لأصنامهم (قالوا: من فعل هذا بآلهتنا، انّه لمن الظالمين. قالوا سمعنا فتى يقال له إبراهيم. قالوا: فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون) لقد وسموه بـــ(الظلم)، وهذا أول مؤشر إلى أنهم يفكرون بإلحاق الأذى به. ثم اقتراحهم بإحضاره أمام الجمهور لإدانته، يفصح عن (توقعنا) بأن (عقاباً) كبير الحجم قد يطاله: كأن يكون قتلاً أو سجناً أو ضرباً مثلاً... لكن مع هذا التوقع، تبدأ القصة برسم منحىً فنّي في بناء الأحداث والمواقف بحيث تنقل القارئ إلى (توقع) مضاد للتوقع السابق، وهو: إمكانية غض النظر عن معاقبة إبراهيم( عليه السلام ) ، وهذا ما يوحي به الحوار الدائر بينه وبين القوم. (قالوا: أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟ قال: بل فعله كبيرهم هذا، فاسئلوهم أن كانوا ينطقون. فرجعوا إلى أنفسهم، فقالوا: أنكم أنتم الظالمون. ثم نكسوا على رؤوسهم: لقد علمت ما هؤلاء ينطقون)(19).ان هذا الحوار الحيّ الممتع يفصح عن ان القوم أحسوا ببعض الخجل، بل أحسوا بخجل كبير أمام أنفسهم حينما خاطبوها بأنّها هي الظالمة، وحينما خفضوا رؤوسهم من الخجل قائلين: (لقد علمت ــ يا إبراهيم ــ ما هؤلاء ينطقون)، أي أنهم أقرّوا بمهزلة آلهتهم، وإلى أنها لا تملك فاعلية النطق... وحينئذٍ (يتوقع) القارئ أنهم سوف يتراجعون عن قرار الإدانة والمعاقبة.هنا ينبغي أن ينتبه القارئ إلى جمالية الأداء القصصي من حيث إثارته للقارئ وعدم رسوه على قرار ثبت: فبينما (يتوقع) إدانة إبراهيم( عليه السلام ) إذا به (يتوقع) الإفراج عنه. لكن: ما أن

يتوقّع (الإفراج) عن ذلك، حتى يصدم بــ(مباغتة) تضاد موقعه الأخير، وترتد به إلى توقعه السابق وهو: العقاب، لكن: ليس على نحو ما (توقعه) من ضرب أو سجن أو قتل اعتيادي، بل (وهذا هو عنصر المباغتة) على نحو لم يدرُ في خلده: (قالوا: حرّقوه...).إذن: يفاجأ القارئ بــ(عقاب) غير متوقّع وهو: (الإحراق)، وهنا نواجه (مباغتةً) اخرى لا نتوقعها البتة، ألا وهي: النهايةالتي ختمت بها القصة وهي تقول:(يا نار: كوني برداً وسلاماً على إبراهيم)(20).لكن التدخل الغيبي قد خيب أمالهم حين صدر النداء الى النار بأن تكون بردا وسلاما عليه، حيث قال تعالى : ((وأرادوا به كيدا فجعلناهم الاخسرين ونجيناه ولوطا الى الأرض التي باركنا فيها للعالمين )(21) وهنا تبدو جمالية الصياغة القرآنية الكريمة لعنصر (المباغتة) في قصة إبراهيم ( عليه السلام ) وبما صاحبها من تماوجٍ ممتعٍ في عواطف القارئ في توقّعاته التي تصاعد بها وتهاوى من حين لآخر، حتى انتهىً به إلى النهاية التي لاحظناها. وكذلك فان بعض المشاهد تعتمد على احضار الأحداث دون تدخل بالرواية وما تستلزمه من حكاية على السنة الأشخاص ، وكل ما يصنعه انه ينبه الى عنوان المشهد أو موضوعه بما يتناسب مع السياق البياني ، ثم يختفي لتصدر الأحداث والأقوال من أصحابها مباشرة فيصبح متلق المشهد كأنه حاضر وقائعه بنفسه دون وساطة ،وذلك مانراه في مشهد بناء الكعبة الذي توَّج به حياتَه الرائعة فنرى إبراهيم وإسماعيل(عليهما السلام ) أمامنا بأشخاصهما يبنيان ، ونسمعهما بألسنتهما يدعوان ، حتى كأنهما معنا في عصرنا هذا وكأننا انتقلنا اليهما في الماضي نعايشهما، حيث يقول تعالى: (( وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم))(22)، فالبيان لم يتدخل هناسواء برفع الستار عن هذا المشهد ، وكذلك في قوله ( إذ يرفع)، فكلمة ( إذ) هنا تمثل المفتاح الذي ينقلنا الى الحدث الواقع ، أو ينقل الحدث ذاته إلينا ، فنشارك أشخاصه المكان والزمان والحياة(23). وهو آخر مشهد نراه فيه، حين يقوم على جبل عرفة يؤذن للناس بالحج:(وإذ بوأنا لابراهيم مكان البيت أن لاتشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود،وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق )(24)،وانتهاء قصة إبراهيم( عليه السلام ) بهذه النهاية تجعل ذلك النداءَ يبدو في صورة مستمرَّة،ومشهده ( عليه السلام ) لا يبرح مخيلتنا وهو يؤذن بالحج، ويتوافد حُجاج بيت الله إلى ذلك المكان الطاهر؛ تلبيةً لذلك النداء الكريم، الذي تتجاوَب النفوسُ المسلمة معه، وتتأثر به، وتهرع إلى أداء النسك على النحو الذي أدَّاه أبوهم إبراهيم ( عليه السلام ).وجمالية هذه النهاية تقوم على بقاء المشهد الأخير حيًّا مؤثِّرًا، فلم يعد المشهد مجرَّد تاريخ ماضٍ، ولكنه حاضر في واقع الحياة كلما حجَّ حاجٌّ إلى هذا البيت.ومما تجدر الاشارة اليه حين نتحدث عن مسألة الترتيب في أحداث القصص القرآني نجد أن الأحداث قد ترتبت ترتيبا واحدا في قصة ضيف إبرهيم المكرمين حيث قال تعالى (ولقد جاء رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ، فلما رأى أيديهم

لاتصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لاتخف إنا أرسلنا الى قوم لوط...))(25).وقال تعالى :(( هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقال سلاما قال سلاما قوم منكرون، فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين ، فقربه اليهم قال ألا تأكلون ، فأوجس منهم خيفة قالوا لاتخف وبشروه بغلام عليم))(26).نرى إن الانكار المذكور في سورةهود غيره في السورة الذاريات إذ يفيد أن سيدنا إبراهيم (عليه السلام) قد أنكرهم لما رأى أيديهم لاتصل الى العجل المشوي الذي قدمه لهم، على ان الظاهر في السورة الثانية أنه أحس بأنهم ملائكة ، وقد انكرهم لانه تخوف أن يكون نزولهم لأمر أنكره الله تعالى عليه، أو لتعذيب قومه(27) .

## ثانيا: عنصر الشخصيات

عنصر الأحداث وعنصر الشخصيات هما العنصران الأساسيان في كل قصة، حيث لايمكن أن نتصور شخصا من غير أحداث تلم به أو تقع عليه ؛ لذلك فالعمل القصصي يقوم على محورين: الشخصية والحدث ، بمعنى أن تكون الشخصية هي الفلك الذي تدور حوله الحدث ، أو تكون الأحداث هي المركزالذي تدور في دائرته الشخصيات ، وقد تتوازن في العمل القصصي الشخصية والحدث فيتبادلان نقطة الأرتكاز والتجمع مرة بعد أخرى(28) .

ويلاحظ في القصص التاريخي ،غلبة الشخصية على الحدث، فيكون الشخص محور الحركة في القصة ، أما القصص القرآني المعجز، فنرى فيه المزج التام بين الشخصية والحدث ثم إدارة المشاهد القصصية في هذا الفلك بحيث تكون المشاهد موزعة توزيعا محكما متوازنا" بين الشخصية والحدث حرصا من القرآن الكريم على الوحدة القصصية في كل صورها وأوضاعها(29).والمتأمل لقصص الأنبياء والمرسلين في القرآن يجدهم يشتركون في الصفات والملامح ، فهم جميعا بشر لا ملائكة وعندهم من الغرائز البشرية ما عند سائر البشر، غير أنهم كانوا الأنموذج للكمال البشري(30). والشخصيات يشكلون الحركة الحيّة في القصة؛ وكما هو واضح فالإحداث والبيئات لا قيمة لها إلاّ بقدر وجود (الحركة الإنسانية) عليها. وحيال هذا فان انتقاء الشخصية وطريقة رسمها وإلقاء الأدوار عليها، يظل في الصميم من حركة القصة وحيويّتها.

وسيدنا إبراهيم( عليه السلام ) كان ينظر في ملكوت السموات والأرض ، حتى يصل الى إن ربه المدبر للكون أكبر من الكواكب والشمس والقمر، ونرى أن العاطفة الدينية لدى هؤلاء الرسل كانت تفوق عطفة النسب والقرابة ؛ فقد هجر إبراهيم( عليه السلام ) أباه وقومه ففي قوله تعالى (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو الله تبرأ منه )(31). فإذا نظرنا الى شخصية سيدنا إبراهيم( عليه السلام ) نرى إن القرآن الكريم لايقول عنه أنه كان طويلا ،أو قصيرا،أو بدينا ،أو نحيفا ،أو أبيض،أو أسمر لان ذلك لايتعلق غرض بذكره وإنما نرى أن القرآن يقول:( إن إبراهيم كان امة قانتا

لله حنيفا ولم يكن من المشركين شاكرا لأنعمه إجتباه وهداه الى صراط مستقيم واتيناه في الدنيا حسنة وانه في الأخرة لمن الصالحين)(32). حيث وصفه تعالى أنه (كان امة ) وهو وصف يفيد بأن الشخصية قد تجمع فيها من كريم السجايا ، وجليل الخصال ما تفرق في غيره من الناس على مدى العصور والأجيال ، فكان امة برأسه كما وصفه عز وجل(33).وفي مشهد ثان يصفه الله تعالى بقوله :( وإبراهيم الذي وفى)(34)؛أي الذي وفى جميع ما شرع له، وفي مشهد ثالث يصفه تعالى:(ما كان إبراهيم يهوديا ولانصرانياً ولكن كان حنيفا مسلماوما كان من المشركين)(35).وفي مشهد رابع يصفه بقوله:( واذكر في الكتاب إبراهيم أنه كان صديقا نبيا)(36).ويصفه في مشهد خامس أنه :( قد جاء ربه بقلب سليم)(37).وقال عنه في مشهد سادس: (إن إبراهيم لأواه حليم)(38).

وإذ يشكل الأبطال الحركة الحيّة في القصة، فاننا نجد ذلك واضحا في القصة سيدنا إبراهيم (عليه السلام) حيث تتجلَّى شخصيةُ الداعية الذي يواجه مختلفَ الظروف بما يناسبها؛ فهو: "الداعية الحكيم في مواجهة السلطان، والداعية البصير في نقضه لمعبودات قومه، والداعية الشجاع في تحطيم الأصنام ومحاجَّة قومه، والداعية الشفيق في محاجَّته لوالده، ودعوته إياه، واستغفاره له"(39) ، وقد تعرَّض( عليه السلام ) لصنوف الابتلاء: من الطرد، والإيذاء، والإلقاء في النار، والأمر بذبح ابنه؛ لكنَّه خرج من كل ابتلاء ظافرًا منتصرًا.

## ثالثا: عنصرالحوار

الحوار ــ كما نعرف جميعاً ــ هو: حديث البطل مع غيره، وحديثه مع نفسه. ومن البيّن ان هذا العنصر يجسّم حيوية القصة بأعلى درجاتها ما دام (الكلام) مع الغير أو مع النفس هو المفصح عن دوافع الشخصية ورغباتها، عن صراعها وهدوئها، بل ان (الكلام) قد يحسم مصير الفرد أو الجمهور أو الأمّة. وبالرغم من ان (السرد) الذي يعني (قص) الأحداث والمواقف ونقلها إلى الآخرين، بمقدوره ان يكشف عن أعماق الشخصية، إلاّ أنه لا تتوافر فيه إمكانات الحوار، لجملة من الأسباب، منها: إنّ ترك الشخص يتحدث بنفسه يظل أشدّ حيوية من نقل كلامه. كما ان ما لديه من (أفكار) لا يستطيع الملاحظ تعرّفها ما لم يعلن الشخص ذلك بنفسه، فضلاً عن ان بعض (الأسرار) لا يمكن التحدث عنها حتى بلسان البطل، بل يظل متحدثاً بها مع نفسه وهذا ما يتطلبه أحد شكلي الحوار ونعني (الحوار الداخلي). كما انّ هناك (حالات) خاصة يستدعيها (التداعي الذهني) الذي ينتقل من خلالها الذهن من موضوعٍ لآخر تربطه به علاقات (التشابه) أو علاقات لا شعورية يتداعى الذهن إليها دون أن ينتبه الشخص إلى مغزى ذلك. ولذلك نجد ان القصة الحديثة تلجأ في كثير من نماذجها إلى ترك البطل (يداعي) بذهنه إلى موضوعات لا علاقة ظاهرية بينها، فيما يستثمر القاص هذه الخصيصة لطرح مختلف(الأفكار)التي يستهدفها.المهم، ان(القصة القرآنية) تعتمد عنصر (الحوار)بأشكاله المتنوعة التي

يستدعيها هذا الموقف أو ذاك مع ملاحظة أن الفارق بين القصة الأرضية وقصص القرآن يتحدد بوضوح من حيث معرفة (المبدع) بما في الصدور وامتناع ذلك عند القاص البشري، الأمر الذي يجعل لعنصر (السرد) في كشفه عن الأعماق نفس (الفاعلية) الموجودة في (الحوار)(40). بيد أن القصة القرآنية ــ على الرغم من ذلك ــ تدع البطل يتحدث مع غيره، أو مع نفسه بغية توفير عنصر (الاقناع) من جانب، وتحقيق المتعة الفنية التي يتطلبها شكل القصة من جانب آخر. ومن الواجب هنا أن نوضح بأن (الحوار) القرآني يتخذ ــ كما قلنا ــ أشكالاً متنوعة، بعضها متوافر في القصة الأرضية وبعضها الآخر غير متوافر فيها. فهناك الحوار الخارجي متمثلاً في محادثة الشخص مع آخر أو مع مجموعة، وهناك الحوار الجمعي المبهم، وهنالك الحوار المحدد، فضلاً عن (حوار) خاص مع (الله)، وحوار مع (النفس)، ومجرد (تفكير) يأخذ سمة الحوار، وفضلاً عن (الحوار) مع الأجناس غير البشرية... الخ... المهم، انّ (الموقف) هو الذي يحدد نمط (الحوار) الذي تستخدمه القصة القرآنية.

وإذا نظرنا الى ذلك القصص المشتمل على الحوارفاننا نجده في قصة سيدنا إبراهيم ( عليه السلام )حيث يقول تعالى: ( واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا، إذ قال لابيه يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا ، يا أبت لاتعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا ، يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ، قال أراغب عن ألهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا ، قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا)(41). وكذلك حواره مع قومه حيث يقول تعالى : ( واتل عليهم نبأ إبراهيم ، إذ قال لابيه وقومه ما تعبدون ، قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين ، قال هل يسمعونكم إذ تدعون وينفعونكم أو يضرون ، قالوا بل وجدنا أبانا كذلك يفعلون ، قال أفرءيتم ما كنتم تعبدون ، أنتم واباؤكم الأقدمون )(42).وأيضا نجد حوارا بينه وبين ضيوفه المكرمين من ملائكة الله تعالى ، وحوارا بينه وبين أبنه إسماعيل، وحوارا بين الذي حاج في ربه إن آتاه الله الملك ، وكذلك نجد حوارا بينه وبين ربه في ذلك الموقف الذي قال فيه تعالى : ( رب أرني كيف تحيّ الموتى الموتى ، قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي...)(43). وهنا نجد إن القرآن الكريم قد التزم بقص أقوال الشخصيات مصدرة بقوله تعالى سبحانه : قال ، أو قالا ، أوقالت ، أو قالوا ، وفي هذا لالة واضحة على أمرين :

أولهما : إن الحوار القرآني لايقوم بين شخصين فحسب ، وإنما يقوم أيضا بين كثرة ، فهناك حوار بين أثنين ، وحوار بين واحد من طرف وأثين من طرف اخر ، وحوار بين واحد من طرف وجماعة من طرف اخر ثم هناك حوار بين جماعة واخرى ... وهكذا.

اخرهما:إن طريقة القرآن الكريم في تصوير الحوار إنما يقوم على أساس الرواية التي بلغ القرآن الكريم المثل الأعلى في إدارتها على وجه الذي يقيم منه معجزة قاهرة تخضع لها الأعناق(44).

ومما تجدر الأشارة اليه هنا أن الحوار القرآني يمتاز بتعدد الوانه ، فهناك حوار بين الانسان والانسان وحوار بين الله تعالى والانسان ، وحوار بين الله تعالى والملائكة ، وحوار بين الانسان والحيوان ، وحوار بين الانس والجن ، ونرى إن تعدد مصادر الحوار في القصص القرآني ميزة من المزايا الجليلة التي نراها فيه، كما نرى أيضا أن القرآن الكريم يعتمد اعتمادا اساسيا وفي مواضع كثيرة جدا على أن لايتصدى لاعدائه بالحوار والمحاججة المباشرة على السنة الانبياء حينا والمؤمنين حينا اخر(45) ، ويذهب بعض الباحثين إلى أن حوار إبراهيم( عليه السلام ) في قوله تعالى (وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين، فلم جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لاأحب الأفلين ،فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لاكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إني بريء مما تشركون ، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حيفا وما أما من المشركين)(46) أنه قد شعر بوجود مشكلة أولاً، وثانيًا جمَعَ بياناتٍ كافيةً حول موضوع المشكلة، وثالثًا وضع الفروض، ورابعًا قوَّم فروضه، ووصل في نهاية المطاف إلى هدفه المنشود(47)، والأمر لا ينتهي بهذا الاكتشاف المُثِير فحسب؛ لكن مشهد البداية يستمرُّ في رصد التداعيات التي أحدثها موقفُ إبراهيم – عليه السلام – حين راح الملأ يحاجُّونه: (وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ماتشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون، وكيف أخاف ما أشركتم ولاتخافون أنكم أشركتم الله مالم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون (48).

بل ونتلمس من حرص القرآن الكريم على ابراز أهمية المحاورة والمحاجة إنه لايقصرها على مهاجمة الاعداء والتصدي للمنافقين وإنما يجعلها في كثير من المواقع نماذج للتربية والتعليم والتوجيه(49)؛ حيث يقول تعالى: (فلما بلغ معه السعي قال يابني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت أفعلما تؤمر ستجدني إن شاءالله من الصابرين)(50).

والملاحظ في قصة إبراهيم( عليه السلام ) مع ولده في قضية الذبح، أن الله وجه (الكلام) إلى إبراهيم بقوله : (وناديناه ان يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا...) حيث تمت الحكاية دون ان تتطلب (جواباً) من إبراهيم ؛بمعنى ان إبراهيم( عليه السلام ) عندما طلب منه الله ان يكف عن الذبح، امتثل الأمر دون ان تكون ثمة حاجة إلى الكلام.

ويمكن ان ندرج هنا المناجاة والابتهال الى الله في الحوار، وفي قصة سيدنا إبراهيم ( عليه السلام ) نجد في دعائه لا يطلب عرضا من الدنيا ،ولكنه دعاء المؤمن الذي عرف الله تعالى ومن ذلك قوله: (رب أجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء ، رب أغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب)(51). وهنا نستشعر لذة الخضوع والانكسار بين يدي الله عز وجل ، وسمو الهمة ، وعظمة

المطالب وأهمية الدعاء ، وحلاوة المناجاة ، وخلوص النية وصدق العزيمة ، وهو ما شرعه الله لعباده وهو ما نجده متحققا في كل اعمال الصلاة ، ففي الاستفتاح دعاء وفي قراءة الفاتحة دعاء وفي الركوع دعاء وفي السجود دعاء وفي التشهد دعاء(52).

## رابعا: عنصر الزمن

للقرآن منهج خاص في عرض التاريخ ، وتصوير الأحداث التي وقعت في الزمن الماضي فنراه مثلا ، إذا أورد قصة من الزمن الماضي لايذكر لنا في أي سنة بدأت أحداث هذه القصة ، ولا في أي سنة أنتهت ، ونراه كذلك لايذكر ترتيبها الزمني في التاريخ ، بمعنى أنه لايحدد زمان القصة بألف أو الفين قبل الميلاد ، أو بعده أو قبل العثة ، أو نحو ذلك ، وسبب ذلك أن النص على الزمن الذي وقعت فيه أحداث القصة القرآنية لايضيف شيئا الى عبرة القصة ومغزاها(53).

وينبغي أن لانفهم من ذلك ان الزمن ليس له قيمة في كتاب الله عز وجل ، فالحقيقة أن القرآن الكريم قد أعطى للزمن وتنظيمه قيمه كبيرة ، ومن الأحداث الثابتة بنص القرآن التي حصلت في حياة خليل الله تعالى وإن أختلف زمنها ومناسبتها أنه سأل ربه أن ريه كيف يحي الموتى ليرتقي بذلك من علم اليقين الى عين اليقين ويرى ذلك مشاهدة ، فأمر الله تعالى إبراهيم (عليه السلام) أن يأخذ أربعة أصناف من الطير ويذبحهن ويقطعهن ويخلط لحومهن وريشهن ودمائهن معا ثم يوزعهن على أربعة أجزاء ، وقيل سبعة ، ويضع كل جزء على جبل ثم يدعوهن ، ففعل كما أمر ثم دعاهن فاجتمعت أجزاء كل طائر بعضها الى بعض فيمنظر عجيب مذهل لم ير مثله حتى اكتمل كل طائر بكامل أجزائه – بإذن الله – ثم جاءت تسعى وقد ردت في كل طائر روحه وعاد كما كان قبل الذبح ، فازداد إبراهيم (عليه السلام )رسوخا الى رسوخه ولم يراوده الشك في قدره الله تعالى لحظة واحدة (54) وفي هذا يقول الباري عز وجل: ( وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم إجعل على كل جبل منهن جزءا ثم أدعهن يأتينك سعيا وأعلم أن الله عزيز حكيم )(55).

لذلك يبدو لنا أن مجيء القصة بهذه الصورة قداثبت أن القرآن الكريم كان هو الرائد السباق الى ذلك اللون القصصي الذي نراه عند بعض الادباء القاصين المغرمين بتحريك الزمن في اتجاه غيرالاتجاه الطبيعي ، فترى الواحد منهم يبدأ الحديث القصصي من نهايته ويعرضه في الشكل الذي أنتهى اليه ، ثم يعود فيطلع به من جديد من أول خطواته، والغاية في ذلك هي إثارة شوق القارئ له في سيرة مع الاحداث ، وفي خطوة معها ،خطوة خطوة ومرحلة مرحلة(56). ويبدو على هذا إن الزمن في القصص القرآني له قيمة كبرى لا من حيث التاريخ الزمني للقصة ، لان القرآن الكريم لايحفل بذلك ، لانه لايضيف شيئا جديدا الى المقصود من القصة ، ولكن من حيث الوضع الخاص للزمن ذلك الوضع الذي

يؤثر في الحدث أو يبرز ملامحه ، أو يقيم شواهد العبرة والعظة منه، فيلتفت اليه القرآن ويذكره صراحة في قصصه ، حتى لاتفتقد القصة ذلك اللون الخاص من الزمن إذا هي لم ترد في صحبته ولم تتلبس به ، وقد استخدم الأسلوب الغيبي في سائر الأنباء التي قصها وكان الزمن الماضي البعيد الموغل في القدم نصرا أصيلا بارزا من عناصر الاعجاز الغيي فيه(57).

## خامسا: عنصر المكان

حينما ننظر الى القصص القرآني المعجز من الزاوية المكانية فيه نجد إن القرآن الكريم ينظر الى المكان على النحو الذي ينظر به الزمان ،فهو لايعني بذكر أسماء الاماكن ومواصفاتها إلا إذا كان لها وضع خاص يؤثر في سير الحدث، أو يبرز ملامحه ، أو يقم شواهد العظة والعبرة منه ، ففي هذا يلتزم القرآن الكريم بذكر أسماء الاماكن ومواصفاتها وذلك في بيان الغرض المقصود من القصة ، وتهب منه على الحدث سمات وأشعة ، ويكون ذا قيمة نفسية ووحية عظمة تفتقدهما الحادثة إذا هي لم تجيء في صحبة المكان المنصوص على اسمه ولم تلبس به(58). ففي قصة سيدنا إبراهيم (عليه السلام) نسمعه وهو يناجي ربه طالبا الأمن والأمان لأشرف بقعة في عالم المكان وهي مكة أم القرى ، فلا يقول: ( رب إجعل مكة بلدا آمنا ) ، وإنما يقول: (رب إجعل هذا بلدا آمنا)(59). ويقول مرة أخرى : (رب إجعل هذا البلد آمنا)(60)، فنراه من ناحية المكان يذكر هذا المكان باسمه الصريح المعروف ، وتراه من ناحية أخرى حين يعبر عن هذا المكان بالبلد ينكره مرة ويعرفه تارة أخرى ، ولكن إيانا أن نظن أنه دعاء واحد يكرره الكتاب الخالد بتعبيرين مختلفين ، بل الدعاء وقع مرتين : مرة قبل مصير هذا المكان أي الوادي الخالي من الزرع بلدا ، ومرة بعد أن صار كذلك فدعا بان يصير هذا البلد آمنا ، وتكرير الدعاء بالأمن يكشف عن رغبته في ثبات الأمن ودوامه لهذا البلد الذي كان الأول حينما ترك هاجر وابنه إسماعيل بالوادي وعاد الى الشام ، والثاني بعد عودته وسكن قبيلة جرهم به(61).

ويرى الزمخشري: " إن الخليل( عليه السلام ) قد سأل ربه في الأول أن يجعل هذا البلد من جملة البلاد التي أهلها ولايخافون ، وفي الثاني : أن يخرجه من صفة كان عليها من الخوف الى ضدها من الأمن، كأنه قال : هو بلد مخوف فإجعله آمنا"(62).

وفي قصة سيدنا إبراهيم( عليه السلام ) ذكر مكان مقدس ، حيث يقول تعالى : ( ونجيناه ولوط الى الارض التي باركنا فيها للعالمين )(63). وهنا نجد أن المكان هنا ليس مجرد مكان بلا حدود ولا قيود ، وإنما هو مكان محدد ، غير أن تحديده لم يكن باسمه العلم وهو الشام وإنما بتلك الصفة التي نراها في الأية الكريمة ، ولاغرو في ذلك فان ذكر المكان على هذه الصورة معناه ، أننا أمام مكان متميز ذي طابع خاص ، فهو مهبط للوحي لمدة طويلة ومبعث الرسل من نسل الخليل( عليه السلام ) وفيه الارض المقدسة – ثاني الحرمين – وفيه بركة الخصب والرزق الى جانب بركة الوحي والنبوة جيلا بعد جيل،

وفي ذلك دلالة على أن إبراهيم ولوطا ( عليهما السلام ) حينما اضطرا الى ترك وطنهما وأهلهما وقومهما بالعراق عوضهما ربهما بتلك الأرض المباركة وطنا خيرا من وطنهما تصل بركاته الى العالمين (64).

ولقد خلصت من دراستي الى أن القصص القرآني خال من التخييل ، وان القرآن الكريم قد بلغ قمة الاعجاز في سرد القصة وتصويرها دون ان يكون للخيال اي دور فيه ، كما يتبين لنا اسبقية القرآن الكريم الى جميع مايشترطه النقاد المحدثون من عناصر تتمثل في : الاحداث ، والشخصيات ، والحوار ، والزمان ،والمكان ؛ التي ينبغي توافرها لتبنى عليها القصة الناجحة، وأخيرا" فقد تبين لنا عن طريق دراسة قصة سيدنا إبراهيم ( عليه السلام ) أن للقصص القرآني وسير الانبياء والمصلحين أثر كبير في رفع معنويات الدعاة الى الله تعالى وإعطاءهم دفعة الى الامام تثبت اقدامهم على طريق الخير والرشاد ، فضلا عن أن القصص والسير وسيلة من وسائل الدعوة والتأثير .

**هوامش البحث:**

1- القرآن الكريم ، سوة النحل ،الآية 120-123،

2- ينظر: تاريخ الأنبياء ،السيد محمد حسين الطبطبائي،إعدادالشيخ قاسم الهاشمي، مؤسسة الأعملي للمطبوعات، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1423هـ -2002 م، ص215.

3- ينظر: الكامل في التاريخ ،ضياء الدين بن الأثير (ت630هـ)، المجلدالأول ، دار ومكتبة الهلال – لبنان، بيروت ،طبعة 2008م، ج2/ص44.

4- ينظر: بيان إعجاز القرآن ، حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (ت388هـ)، دارالتأليف، القاهرة 1372هـ - 1932م، ص26- 29.

5- ينظر: إعجاز القرآن ، محمد بن الطيب الباقلاني (ت403هـ)، دار المعارف ،القاهرة ،1971م، ص53.

6- ينظر: دلائل الأعجاز ،عبدالقاهر الجرجاني(ت 482هـ) ، وتصحيح وتعليق محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، القاهرة 1381هـ - 1961م، ص32.

7- ينظر : الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم، نذير حمدان ،دار المثابرة ، جدة – السعودية ، الطبعة الأولى 1412هـ - 1991م، ص431.

8- ينظر : المصدر نفسه ص16.

9- ينظر: البنية القصصية في رسالة الغفران : حسين الواد ، الدار العربية للكتاب ، تونس، 1975م،ص12.

10- ينظر : أدب القصة في القرآن الكريم دراسة تحليلية كاشفة عن عالم الإعجاز ، د. عبد الجواد محمد المحص ، الدار المصرية – الاسكندرية ، سلسلة الدراسات القرآنية (1)، 2000م،ص18.

11- سورة القصص، الآية11.

12- ينظر : لسان العرب، جمال الدين محمد بن منظور(ت711هـ)، دار الحديث ، القاهرة ،1423هـ-2003م، ج7، مادة ق ص ص.

13- ينظر: أدب القصة في القرآن الكريم،ص134.

14- ينظر : الفن القصصي في القرآن الكريم، د. محمد أحمد خلف الله ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط2 ، 1975م،ص288.

15- ينظر: المصدر نفسه،ص288.

16- سورة الانعام ،الآية 73.

17- سورة الشعراء ،الآية 69-73.

18- سورة الأنبياء، الآية 57-58.

19- سورة الانبياء ،الآية 63.

20- سورة الانبياء ،الآية 69.

21- سورة الانبياء ،الآية 70-71.

22- سورة البقرة،الآية127.

23- ينظر:أدب القصة في القرآن الكريم، ص142.

24- سورة الحج،الآية26-27.

25- سورة هود،الآية69-70.

26- سورة الذاريات ،الآية24-28.

27- ينظر:الكشاف عن الحقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، تفسيرالزمخشري ، أبوالقاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (ت393هـ)،دار المعرفة للطباعة والنشر- بيروت،ج2/ ص280.

28- ينظر: أدب القصة في القرآن الكريم،ص 149.

29- ينظر: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه ، عبد الكريم بالخطيب،مطبعة السنة المحمدية، ط1، 1384هـ/1968م،ص42-43.

30- ينظر: أدب القصة في القرآن الكريم، ص 154.

31- سورة التوبه ،الآية114.

32- سورة النحل ،الآية121-122.

33- ينظر: البداية والنهاية،للامام الحافظ عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي(ت774هـ)،المطبعةالسعادةو المطبعةالسلفية،ط1، 1351هـ- 1932م،ج1/ص164.

34- سورة النجم،الآية37.

35- سورةآل عمران،الآية67.

36- سورة مريم،الآية41.

37- سورة الصافات،الآية84.

38- سورة التوبة،الآية5.

39- خصائص القصةالإسلامية، للدكتور مأمون فريز جرار، ط10 - جدة: دار المنارة، 1408هـ، ص77.

40- ينظر:أدب القصة في القرآن الكريم، ص232.

41- سورة مريم،الآية41-47.

42- سورة الشعراء،الآية70-76.

43- سورة البقرة، الآية 360.

44- ينظر: أدب القصة في القرآن الكريم، ص224.

45- ينظر:المصدر نفسه،ص232 .

46- سورة الانعام،الآية75-79.

47- ينظر: الحوار ورسم الشخصية في القصص القرآني؛ عبدالمرضي زكريا، ط1، بيروت: مكتبة زهراء الشرق، 1997م، ص70.

48- سورة الانعام،الآية80-81.

49- ينظر:أدب القصة في القرآن الكريم، ص232.

50- سورة الصافات ،الآية102.

51- سورة إبراهيم ،الآية40-41.

52- ينظر:الفن القصصي في القرآن الكريم،ص 303-304.

53- ينظر:جماليات المضمون والشكل في الإعجاز القرآني، د.محمد الصاوي الجويني،منشورات منشأة المعارف،الاسكندرية،مطبعة أطلس،القاهرة،1983م، ص21-22.

54- ينظر:البداية والنهاية،ج1/ ص315.

55- سورة البقرة،الآية260.

56- ينظر:القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص89.

57- ينظر: المصدر السابق، ص89.

58- ينظر: المصدر السابق، ص95-96.

59- سوة البقرة،الآية 126.

60- سورة إبراهيم،الآية 35.

61- ينظر:الإتقان في علوم القرآن،جلال الدين السيوطي ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ،1975م،ج3/ص 394.

62- الكشاف ، ج 2/ ص 379.

63- سورةالأنبياء،الآية71.

64- ينظر: أدب القصة في القرآن الكريم،ص282.

## مصادر البحث:

1- القرآن الكريم.

2- الإتقان في علوم القرآن،جلال الدين السيوطي ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ،1975م.

3- أدب القصة في القرآن الكريم دراسة تحليلية كاشفة عن عالم الإعجاز ، د. عبد الجواد محمد المحص ، الدار المصرية – الاسكندرية ، سلسلة الدراسات القرآنية (1)، 2000م.

4- إعجاز القرآن ، محمد بن الطيب الباقلاني (ت403هـ)، دار المعارف ،القاهرة ،1971م.

5- البداية والنهاية، للإمام الحافظ عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي(ت774هـ)،المطبعة السعادة والمطبعة السلفية،ط1،1351هـ- 1932م.

6- البنية القصصية في رسالة الغفران : حسين الواد ، الدار العربية للكتاب ، تونس، 1975م.

7- بيان إعجاز القرآن ، حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (ت388هـ)، دارالتأليف، القاهرة 1372هـ - 1932م.

8- تاريخ الأنبياء ،السيد محمد حسين الطبطبائي،إعدادالشيخ قاسم الهاشمي، مؤسسة الأعملي للمطبوعات، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1423هـ –2002 م.

9- جماليات المضمون والشكل في الإعجاز القرآني، د.محمد الصاوي الجويني،منشورات منشأة المعارف،الاسكندرية،مطبعة أطلس،القاهرة،1983م.

10- الحوار ورسم الشخصية في القصص القرآني؛ عبدالمرضي زكريا، ط1، بيروت: مكتبة زهراء الشرق، 1997م.

11- خصائص القصةالإسلامية، للدكتور مأمون فريز جرار، ط10 – جدة: دار المنارة، 1408هـ.

12- دلائل الأعجاز ،عبدالقاهر الجرجاني(ت 482هـ) ، وتصحيح وتعليق محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، القاهرة 1381هـ – 1961م،

13- الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم، نذير حمدان ،دار المثابرة ، جدة – السعودية ، الطبعة الأولى 1412هـ – 1991م.

14- الفن القصصي في القرآن الكريم، د. محمد أحمد خلف الله ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط2 ، 1975م.

15- القصص القرآني في منطوقه ومفهومه ، عبد الكريم بالخطيب،مطبعة السنة المحمدية، ط1، 1384هـ/1968م.

16- الكامل في التاريخ ،ضياء الدين بن الأثير (ت630هـ)، المجلدالأول ، دار ومكتبة الهلال – لبنان، بيروت ،طبعة 2008م.

17- الكشاف عن الحقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، تفسيرالزمخشري ، أبوالقاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (ت393هـ)،دار المعرفة للطباعة والنشر– بيروت.

18- لسان العرب، جمال الدين محمد بن منظور(ت711هـ)، دار الحديث ، القاهرة ،1423هـ– 2003م.